بابا الوطنية المصرية

بالطبع، نتمنى أن يكون الاعتداء الإرهابى على المسيحيين المصريين فى "كنيسة الوراق" هو الأخير من نوعه ، وإن كان ليس كل ما يتمناه المرء يدركه ، فثمة مخاض عنيف يجرى فى مصر الآن ، تولد فيه "مصر الجديدة" عفية نقية خالصة مبرأة من شوائب وركام زمن الاحتقان الطائفى والمفاصلة الطائفية .

ويلحظ المراقب المدقق تغيرا هائلا فى مزاج الرأى العام المصرى ، فلم تعد لغواية الشحن الطائفى ذات البريق الذى كان لها ، ولم تعد أحزان المسيحيين تخصهم ، بل صار الحزن مصريا وطنيا جامعا ، ليس فقط لأن الضحايا الذين سقطوا فى الحادث الإرهابى الأخير من المسيحيين والمسلمين معا ، وليس فقط لأن الضحايا سقطوا فى حفلة عرس كانت مقامة فى الكنيسة ، بل لأن شيئا مهما تغير فى مزاج المصريين ، فلديهم - أى لدى غالب المصريين - إحساس متنامٍ بطبع المرحلة ، ولديهم شعور بالعيش المشترك فى مرحلة كفاح وطنى لاسترداد البلد ، وفى سياق ثورة عظمى أطاحت بنظامين فى ثلاثين شهرا ، وتواجه لحظة اختبار عند مفارق الطرق ، وتتكاثف ضدها حملة دولية غربية تشبه الحرب الفعلية ، والتى تدور رحاها من معاقل الإرهاب فى سيناء التى يعاد استردادها ، وإلى مدن القتال الوطنى على خط القنال ، وإلى أعماق الوادى فى الدلتا والصعيد ، وقد جرى إحراق عشرات الكنائس والمنشآت المسيحية ، وكأنها محاولة لشق بطن مصر الرخوة ، وإشعال حرب طائفية تستدعى تدخلا خارجيا خشنا ، وعلى نحو ما يأمل الذين فقدوا ملكا لم يصونوه كالرجال ، ثم يبكون عليه الآن كالنساء ، ويتاجرون بالدم طلبا لعطف ما يسمونه بالمجتمع الدولى ، وكلها ألعاب صغيرة ، تنفق فيها مليارات ، وتتواطأ فيها أجهزة مخابرات كبرى دولية

وإقليمية ، لكنها تخطئ العنوان بالتأكيد ، فمصر ليست كغيرها من بلاد الموزاييك الطائفى ، مصر بلد عريق عظيم التجانس، قد يضعف ويمرض أحيانا، لكنها ـ كالعنقاء ـ تقوم دائما من رماد ، وتنهض لملاقاة التحدى ، وتجتمع كقبضة يد فى لحظة صناعة التاريخ .

ودعك ممن يذرفون دموع التماسيح ، أو ممن يدينون أو يستنكرون ذرا للرماد فى العيون، بينما الكل يعرف أنهم الفاعلون ، وبالتحريض أو بالتنفيذ ، وفى كل حوادث الإرهاب التى تدور فى مصر ، وليس ـ فقط ـ فى حوادث الإرهاب المستهدفة للمسيحيين أو الكنائس ، فلم يعد الوقت يحتمل خداع الصور ، ولا التفرقة بين المصريين على أساس طائفى ، فالمصريون هم مصر ، وهم رأسمال الضمير والحياة فيها ، والخنادق الآن لا تتحدد على أساس طائفى سعت الثورة المضادة إلى تكريسه ، بل على أساس وطنى جامع ، لايفرق فيه أحد بين دم و دم ، فالدم المصرى كله حرام ، وإن كان الفارق ملحوظا فى مغزى الدم ، فالدم الذى يبذل من أجل تحرير مصر ليس كالدم الذى يسيل من أجل تركيعها ، والبسطاء ـ قبل الفقهاء ـ يعرفون فوارق المغزى ، فثمة دم يراق فى موارد التهلكة ، وثمة دم يذهب إلى موارد الشهادة ، وإعادة بناء المشروع الوطنى ، وبحركة الناس الأحرار هذه المرة ، وليس بحركة الضباط الأحرار ، كما كانت عليه قصة ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ومن أبجديات المشروع الوطنى نفى الفتنة الطائفية واجتثاث دواعيها ، فلم تعرف مصر أبدا شيئا اسمه الفتنة الطائفية فى زمن المشروع الوطنى ، ولم يرد ذكر لحادثة طائفية واحدة فى سنوات الخمسينيات والستينيات ، ومع الانقلاب على المشروع الوطنى الجامع ، وبالتوازى مع انقلاب الثورة المضادة زمن الرئيس السادات ، صارت الفتنة الطائفية خبز مصر اليومى ، وبخاصة مع لجوء الثورة المضادة إلى استنفار دينى كذوب ، واستخدام الدين كستار لتغطية الخيانات لله ورسوله والمؤمنين ، بالانقلاب على حركة النهوض

والتصنيع الشامل والعدالة الاجتماعية ، وبالاتجاه إلى الاستسلام لكيان الاغتصاب الإسرائيلى ، وتحويل أمريكا من عدو إلى كفيل ، وتشقيق الوجدان الوطنى المصرى ، وهو ما يفسر المفارقة الملتاثة التى جرت ، فقد كان السادات - مثلا - يقول لك أنه رئيس مسلم لدولة مسلمة ، وكان سدنته ينعتونه بصفة "سادس الخلفاء الراشدين"!، كانت هذه "الإسلامية" الكاذبة توالى تخرصاتها بالتوازى مع عقد معاهدة العار المسماة بمعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية ، وبالتوازى مع مدائح السادات - المنعوت بخليفة المسلمين - لصديقه مناحم بيجين ، وتوالت فصول الملهاة التى تحولت إلى مأساة ، وبدا أن مصر - عبر أربعة عقود أخيرة - قد انقسمت مجازيا إلى دولتين ، دولة للمسلمين يترأسها السادات ثم مبارك، ودولة للمسيحيين تراجعت إلى داخل أسوار الكنيسة ، ويترأسها البابا شنودة الثالث ، وقد كان الأخير رجلا قويا ، وظل على رأس الكنيسة لمدة جاوزت الأربعين سنة ، واستحق لقب "بابا العروبة" ، حين وقف ضد التطبيع مع الإسرائيليين ، ورفض حج المسيحيين إلى القدس المحتلة ، وكان يقولها بصراحة "لن أسمح بأن يوصف المسيحيون بأنهم خونة الأمة العربية"، كان موقف البابا شنودة وطنيا مصريا عروبيا بامتياز ، وكان موقفه أفضل بمراحل من مواقف مشايخ خانوا عهود الأديان والأوطان ، غير أن البابا شنودة - برغم موقفه الوطنى - استمرأ حالة الدولتين المجازيتين فى مصر ، وحول الكنيسة إلى دولة منفصلة للمسيحيين ، وكان يدير علاقاته مع دولة مبارك كدولة مجاورة ، تشهد العلاقات بينهما تجاذبات وتضاغطات ، ثم تشهد أزمات فى لحظات الحوادث الطائفية ، وإن ظل الاعتراف المتبادل قائما ، وهو ما يفسر تأييد البابا شنودة لرئاسة مبارك ولتوريث نجله جمال مبارك ، فقد كان الأمر عنده متعلقا بقوم آخرين هم المسلمون ، بينما لا رأى للمسيحيين الذين احتبسهم فى صوته الشخصى ، وبدت القصة مما يروق لتيار اليمين الدينى ، ولجماعاته التى تحبذ المفاصلة الطائفية على أساس دينى ، ووفقا لتفسيرات صحراوية تراكمت كبثور

على وجه التحضر المصرى ، ثم جاءت الثورة ضد "الثنائيات اللعينة"، ضد ثنائية مبارك والإخوان ، وضد ثنائية مبارك والبابا شنودة ، وشهدت موجة الثورة الأولى - فى ٢٥ يناير ٢٠١١ - أول خروج واسع من شباب المسيحيين على تحكم البابا شنودة ، خرجوا من أسوار الكنيسة إلى الفضاء الوطنى الواسع ، وإلى فرصة الامتزاج المصرى مجددا ، وهو ما بدا تطورا مخيفا لجماعات "اليمين الدينى" الزاحفة إلى قصور السلطة بعد خلع مبارك ، والتى يفيدها أكثر عزل المسيحيين فى قفص الكنيسة ، فزادت خطابات تنفير المسيحيين ، وزادت معدلات حوادث الفتنة الطائفية واستهداف المسيحيين ، وإلى أن ولدت النعمة من قلب المحنة ، وتبين للمصريين خواء شعارات "اليمين الدينى" التى خادعتهم طويلا ، ثم كانت التجربة خير برهان ، فقد أزالت المساحيق الدينية ، وكشفت تطابق اختيارات الإخوان مع اختيارات مبارك ، وبمعدلات شحن طائفى أكبر تذكر ببداية قصة الثورة المضادة زمن الرئيس السادات ، وبدا الارتباط موحيا فى وجدان المصريين الوطنى، ثم كانت الاستجابة الإعجازية لمبادرة شباب "تمرد" ، وكانت الموجة الأعظم للثورة المصرية المعاصرة فى ٣٠ يونيو ٢٠١٣، وامتزج فيها الوجدان مع أبدان المصريين كما لم يحدث منذ حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

نعم ، لا تزال الثورة تعانى ، فهى لم تحكم بعد ، ولم تهزم جماعات الثورة المضادة بصورة نهائية حاسمة ، فجماعات الثورة المضادة تتناوب على الحكم ، وبعد كل موجة ثورية ، يأوى الناس إلى بيوتهم ، ثم يحكم "الأغيار" لو جازت استعادة المصطلح اليهودى ، لكن الإنجاز الحاسم للثورة - إلى الآن - ظهر فى الشارع لا فى السلطة ، ظهر فى تغير مزاج المصريين ، ووعيهم لخطورة اللحظة ، وهو ما يفسر انخفاض منسوب الشعور الطائفى ، وارتفاع منسوب الشعور الوطنى الجامع ، ولعلها كانت مصادفة بليغة المغزى ، أن توفى البابا شنودة مع

صعود الإخوان للحكم ، وأن خلفه البابا تواضروس ، والذى صار رقما مهما فى معادلة ٣٠ يونيو وما تلاها ، وقد حافظ الرجل على تقاليد الكنيسة الوطنية ، لكنه أضاف شيئا مهما جدا ، فقد فك قبضة التحكم الكنسى فى سلوك المسيحيين السياسى ، وشجع على خروجهم من أسوار الكنيسة ، وعلى اندماجهم فى المجموع الوطنى الساعى إلى تغيير ثورى شامل ، وحين أحرق الإرهابيون كنائس بالجملة ، لم ينجرف الرجل إلى اجترار أحزان طائفية ، وأطلق تعبيره الشهير " كنائسنا فداء لمصر "، وهو ما جعل أحزان المسيحيين وجعا وطنيا عاما، استحق معه الرجل لقب " بابا الوطنية المصرية " بامتياز .

"القدس العربى " فى ٢٨ من أكتوبر ٢٠١٣